يا شباب العرب[١]

يقولون : إنَّ في شباب العرب شيخوخةَ الهِمَم ، والعزائم ؛ فالشُّبَّانُ يمتدُّون في حياة الأمم ، وهم ينكمشون .

وإنَّ اللَّهوَ قد خَفَّ بهم ؛ حتَّى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجِدِّ ، فأهملوا الممكناتِ ، فرجعتْ لهم كالمستحيلات .

وإنَّ الهزلَ قد هَوَّن عليهم كلَّ صَعْبةٍ ، فاختصروها ؛ فإذا هزِئوا بالعدوِّ في كلمةٍ ؛ فكأنَّما هَزَمُوه في معركةٍ . . .

وإنَّ الشَّابَّ منهم يكونُ رجلاً تامّاً ، ورجولةُ جسمهِ تحتجُّ على طفولةِ أعماله .

ويقولون : إنَّ الأمرَ العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تَبِعةَ أمرٍ عظيم .

* * *

ويزعمون : أنَّ الشَّبابَ قد تمَّت الأُلفةُ بينه وبين أغلاطِه ، فحياتُه حياةُ هذه الأغلاطِ فيه .

وأنَّه أبرعُ مقلِّدٍ للغرب في الرذائل خاصَّة ؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوان محصوراً في طعامِه ، وشرابِه ، ولذَّاتِه .

ويزعمون : أنَّ الزُّجاجةَ من الخمر تعملُ في هذا الشرق المسكينِ عملَ جندي أجنبيٍّ فاتح . . .

ويتواصَوْن بأنَّ أوَّلَ السِّياسةِ في استعباد أممِ الشَّرق ، أن يُتْرَكَ لهم الاستقلالُ التَّامُّ في حرِّية الرَّذيلة . . .

ويقولون : إنَّه لا بدَّ في الشَّرق من آلتين للتَّخريب : قوَّةِ أوربة ، ورذائلِ أوربة .

* * *

(١) أنشأها في إبَّان ثورة فلسطين لحقّها سنة (١٩٣٦) . (س) .

يا شبابَ العرب ! مَنْ غيرُكم يكذِّبُ ما يقولون ، ويزعمون على هذا الشَّرقِ المسكين ؟

مَن غيرُ الشَّباب يضع القوَّةَ بإزاء هذا الضَّعفِ الَّذي وصفوه لتكونَ جواباً عليه ؟

من غيركم يجعل النُّفوس قوانينَ صارمةً ، تكون المادَّةُ الأولى فيها : قَدَرْنا ؛ لأنَّنا أردنا ؟

ألا إنَّ المعركةَ بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسيَّةٌ ، إن لم يُقْتَلْ فيها الهزلُ ؛ قُتل فيها الواجب !

والحقائقُ التي بيننا وبين هذا الاستعمار إنَّما يكون فيكم أنتم بحثُها التَّحليليُّ ، تكْذِبُ ، أو تَصْدُق .

* * *

الشَّبابُ هو القوَّة ؛ فالشَّمس لا تملأُ النَّهارَ في آخره كما تملؤه في أوَّله .

وفي الشَّباب نوعٌ من الحياة تَظهرُ كلمةُ الموتِ عنده كأنَّها أختُ كلمةِ النَّوم .

وللشَّباب طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثِّقةُ بالبقاء ، فأوَّلُ صفاتها الإصرارُ على العزم .

وفي الشَّباب تَصْنَعُ كلُّ شجرة من أشجار الحياة أثمارَها ؛ وبعد ذلك لا تصنع الأشجارُ كلُّها إلا خَشَباً . . .

يا شبابَ العرب! اجعلوا رسالتكم: إمَّا أن يحيا الشرقُ عزيزاً، وإمَّا أن تموتوا .

* * *

أنقِذوا فضائلَنا من رذائلِ هذه المدنيَّة الأوربية ؛ تُنقِذوا استقلالَنا بعد ذلك ، وتنقذوه بذلك .

إنَّ هذا الشَّرقَ حين يدعو إليه الغرب ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ [الحج : ١٣] .

لبِئس المولى؛ إذا جاء بقوَّته وقوانينهِ، ولبئسَ العشيرُ؛ إذا جاء برذائله وأطماعه.

أيُّها الشَّرقي ! إنَّ الدِّينارَ الأجنبيَّ فيه رصاصةٌ مخبوءةٌ ، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدَّنانير .

أيُّها الشَّرقيُّ ! لا يقولُ لك الأجنبيُّ إلا ما قال الشَّيطان : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

* * *

يا شبابَ العرب ! لم يكن العسيرُ يَعْسُرُ على أسلافكم الأوَّلين ، كأنَّ في يدهم مفاتيحَ من العناصر ، يفتحون بها .

أتريدون معرفةَ السِّرِّ ؟ السِّرُّ : أنَّهم ارتفعوا فوق ضعفِ المخلوق ، فصاروا عملاً من أعمال الخالق .

غَلَبوا على الدُّنيا لمَّا غلَبوا في أنفسهم معنى الفقر ، ومعنى الخوف ، والمعنى الأرضي .

وعلَّمهم الدِّينُ كيف يعيشون باللَّذات السَّماوية ؛ التي وَضعتْ في كلِّ قلبٍ عظمتَه ، وكبرياءَه .

واخترعهم الإيمانُ اختراعاً نفسياً ، علامتُه المسجَّلةُ على كلٍّ منهم هذه الكلمة : لا يَذِلُّ .

* * *

حين يكونُ الفقرُ قلَّةَ المال ، يفتقرُ أكثرُ الناس ، وتتخذلُ القوَّةُ الإنسانيَّة ، وتَهلكُ المواهب .

ولكن حين يكونُ فقرَ العمل الطَّيِّب ؛ يستطيع كلُّ إنسانٍ أن يغتني ، وتنبعثُ القوةُ ، وتعملُ كلُّ موهبة .

وحين يكون الخوفُ من نقص هذه الحياةِ ، وآلامها ، تفسِّرُ كلمةَ الخوفِ مئة رذيلةٍ غيرِ الخوفِ .

ولكن حين يكونُ من نقص الحياة الآخرة وعذابها ، تُصبح الكلمةُ قانونَ الفضائل أجمع .

هكذا اخترعَ الدِّين إنسانَه الكبيرَ النَّفسِ ؛ الذي لا يقال فيه : انهزمتْ نفسُه .

* * *

يا شبابَ العرب ! كانت حكمةُ العربِ ؛ الَّتي يعملون عليها : اطلُبِ الموتَ ؛ تُوهَبْ لك الحياة .

والنَّفسُ إذا لم تخشَ الموتَ كانت غريزةُ الكفاحِ أوّلَ غرائزها تَعْمل . وللكفاح غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصراً ؛ إذ لا تكونُ الفكرةُ معها إلا فكرةً مُقاتِلةً .

غريزة الكفاح يا شباب ! هي التي جعلت الأسدَ لا يُسَمَّنُ ، كما تسمَّن الشَّاةُ للذَّبح .

وإذا انكسرتْ يوماً ، فالحجَرُ الصَّلْدُ إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعةٌ ؛ كانت دليلاً يكشِفُ للعين : أن جميعَه حجرٌ صَلد .

* * *

يا شبابَ العرب ! إنَّ كلمة (حقِّي) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلُها حياتَه فيها .

فالقوَّةَ القوَّةَ يا شباب ! القوةُ التي تقتل أوّلَ ما تقتل فكرة التَّرفِ ، والتَّخنُّث .

القوة الفاضلة المتساميةُ ؛ الَّتي تضع للأنصار في كلمة (نعم) معنى نعم .

القوة الصَّارمة النفَّاذةُ ؛ التي تضع للأعداء في كلمة (لا) معنى لا .

يا شباب العرب ! اجعلوا رسالتكم : إمَّا أن يحيا الشَّرق عزيزاً ، وإمَّا أن تموتوا .

* * *